الروائي التاريخي بين الحقيقة التاريخية والخيال الفني

الدكتور

حسين يوسف حسين

استاذ مساعد ــ قسم اللغة العربية

الرواية التاريخية من الأشكال الأدبية التي أكتمل جنسها في بداية القرن التاسع عشر . وتزامن ذلك مع عصر الأزدهار الرومانتيكي ، ولو أنه من الصعب القول انها ظاهرة رومانتيكية خالصة ، لانها جزء من تراث اوسع هو التراث الروائي . حاول بعض الدارسين الربط بين نشوئها وتطور الدراسات التاريخية في القرن الثامن عشر ، فقد كان هذا القرن مهتماً بالتاريخ اهتماماً كبيراً ــ او كما يسميه ارنست بيكر ــ قرن التاريخ (١) فقد شهد القرن الثامن عشر ظهور مؤرخين وفلاسفة كبار في اوربا من امثال جيبون Gibbon وهيوم Hume وفولتير Voltaire واخرين ، ممن نظروا الى الماضي نظرة جديدة تميزت بالروح النقدية من ناحية وبالتفسير الموضوعي للتاريخ من ناحية اخرى : كما استطاعوا ان يتعلموا دراسة الحقائق بكل تفصيلاتها استناداً الى البحث العلمي الدقيق (٢) ، واصبح التأريخ لوناً من الوان التفكير يختلف عن انواع المعرفة الاخرى ، وكان لذلك تأثير كبير في التغيير الذي طرأ على تصور المؤرخين للتأريخ ووظيفته .

فلم يعد التاريخ مجرد حقائق نتثبت منها ، ولكن التأريخ الذي يفهم عن طريق ادراك الإسباب التي من اجلها حدثت هذه الحقائق في الصورة التي حدثت بها فعلا (٣).

(1) Baker, E., The History of the English Novel, Vol. III. p. 804.

(٢) كولنجوود ، فكرة التأريخ ، ص٣٦

(٣) نفسه ، ص ٢١١

كما ان الرواية نفسها كفن ادبي كانت قد بلغت مرحلة كبيرة من التطور في نهاية القرن الثامن عشر ، وشكل هذا التطور خلفية مهمة للرواية التاريخية وكان لذلك تأثير مهم ايضاً في ظهورها في هذه الفترة .

وبفضل ولتر سكوت (١٧٧١ — ١٨٣٢) Walter Scott احتلت الرواية التأريخية مكانة هامة في تأريخ الرواية ، فقد اراد هذا الكاتب ان يجمع بين عمل المؤرخ ونظرته الى الماضي وعمل الروائي في محاولته تحقيق التواصل في التجربة الانسانية ، ولذلك فقد كان تأثيره كبيراً على الرواية في انكلتر واوربا حتى عده البعض ابا للرواية التأريخية ، فقد وضع سكوت امامه ثمانمائة عام من التأريخ الاسكتلندي والانجليزي والفرنسي واتخذها مادة للتجربة الروائية التأريخية استطاع من خلاله تغيير مجرى الرواية كله في اوربا باكملها ،وليس هذا فحسب وانما غير ،دون ان يكون مؤرخاً بالمعنى الدقيق، طريقة كتابة التاريخ تماماً . ، لانه حاول ان يصور الواقع التاريخي كما كان فعلا، ويمكن ان يكون في ذات الوقت حقيقياً من الناحية الانسانية واهلا ليعايشه مرة اخرى القارىء في عصر لاحق (١) .

لم يحاول كثير من الباحثين تقديم تعريف للرواية التأريخية لوضوحها الظاهري في حين ركز من حاول تعريفها على بعض خصائص هذا الشكل الروائي . وقد ذكر بعض النقاد ان اية رواية تعود خلفيتها التأريخية الى اكثر من(٤٠ — ٦٠) سنة تعد رواية تأريخية (٢) .

ولاحظ آخرون ان الرواية لن تكون تأريخية بحديثها عن الماضي فحسب ولكن عندما نجد ان خيال كاتبها يساعد حقائق التأريخ (٣) . وتذهب هيلين كام Helen Cam الى ان الرواية التأريخية هي اعادة خلق عصر ومجتمع وعالم بفكره وشعوره ، وليس مجرد القاء ضوء على شخصية

(١) لوكاش ، جورج ، الرواية التاريخية ، ص ٤٤

(2) Flieshman, I, The English Historical Novel, p.3.

(3) Sheppard, The Art of Historical Fiction, p. 15.

معينة او مجموعة اشخاص او احداث تأريخية(١)، في حين يؤكد تبل Tebble ان المهم في هذا المجال هو ان الرواية التأريخية الحقيقية هي تلك التي تتناول حياة رجال ونساء عاشوا واحبوا وماتوا في عالم مختلف تماماً عن عالمنا هذا (٢).

على ان المهم في رأي لوكاش هو ان يجعلنا الروائي التأريخي نعيش مرة اخرى الدوافع الاجتماعية والانسانية التي ادت بالناس الذين برزوا في احداث التأريخ الكبيرة الى ان يفكروا ويشعروا ويتصرفوا كما فعلوا ذلك تماماً في الواقع التأريخي (٣)

فالرواية التأريخية تختلف عن الاشكال الروائية الاخرى بخصوصية علاقتها بالماضي، ولو ان وجود خلفية واقعية للاحداث هو من السمات المعروفة للرواية عموماً، حتى ان بعض الروايات غير التأريخية تعتمد على خلفية مستقاة من احداث الماضي؛ ولكن الرواية التأريخية تختلف عن تلك الروايات بسبب هذه العلاقة الخاصة بالتاريخ، فهي تتميز عنها بكونها ذات طبيعة مركبة، أي انها جمعت امرين هما الرواية والتأريخ، ومن هنا تبرز صعوبة هذا الشكل الروائي الذي يخلق عالماً مملوءاً بالاسماء والاحداث حتى انه يبدو عالماً واقعياً كالماضي الذي يمثله من جهة، ولكنه لايستطيع ان يبتعد عن الاطار التأريخي للاحداث التي وردت في كتب المؤرخين من جهة اخرى، ولو ان المؤرخ نفسه، عندما يتناول الماضي بالدراسة لايقف عند سرد الاحداث بل له دور في اختيار احداثه وتأويلها، أي ان حقائق الماضي التي تصل الينا هي نتيجة تفاعل وحوار المؤرخ مع تلك الحقائق ثم يقدمها لنا بالطريقة التي يفكر فيها ويراها، وعليه فان تفحصنا

---

(1) Cam, H., Historical Novel, p. 18.
(2) Tebble John. Fact and Fiction. P. 37

(٣) لوكاش، ص٤٦

لعلاقة المؤرخ نفسه بحقائق التأريخ قد يصل بنا الى حالة غير مستقرة (١). لان مسألة الحقيقة التأريخية ذاتها اثارت جدلا ونقاشاً كبيرين بين فلاسفة التأريخ ودارسيه ، طالما ان التأريخ يهتم بحوادث لم تعد قائمة ولايستطيع ان يستحضرها إلا بفعل ذاكرة الاخرين ، وليس بالامكان تصور ظروف يتكرر فيها وقوعها . وهكذا فان التاريخ يصنع من النصوص التي وصلت الى ايدي المؤرخين ، ولا بد ان تخضع الحقائق ، سواء وجدت في الوثائق ام لم توجد لصنع المؤرخ ، والفائدة التي نستخلصها من الوثائق هي عملية الصنع (٢).

يتحدث ابن خلدون في مقدمته عن المؤرخين فيقول « فاذا يحتاج صاحب هذا الفن الى العلم بقواعد السياسة وطبائع الموجودات واختلاف الامم والبقاع والأمصار في السير والاخلاق والعوائد والنحل والمذاهب ..... والقيام على اصول الدول والملل ومبادىء ظهورها واسباب حدوثها ودواعي كونها واحوال القائمين بها واخبارهم حتى يكون مستوعباً لاسباب كل خبر وحينئذ يعرض خبر المنقول على ماعنده من القواعد والاصول فإن وافقها وجرى على مقتضاها كان صحيحاً والا زيفه واستغنى عنه » (٣) وهكذا فان حقائق التاريخ لاتصل الينا بصورة بحته لانها لا توجد ولايمكن ان توجد بصورة بحتة، انها دائماً تنعكس من خلال ذهن المدون ، ويترتب على ذلك اننا اذا تناولنا عملا تأريخياً فينبغي ان لا يكون اهتمامنا الاول منصباً على الحقائق التي يتضمنها وانما على المؤرخ الذي كتبها (٤) . فقراءة للمؤلفات التي كتبت عن الحرب العالمية الثانية مثلا . وهذا ليس بالماضي البعيد ، نجد ان هناك اختلافاً كبيراً بين وجهات نظر المؤرخين الغربيين للحرب ؛ ووجهات نظر المؤرخين من اوربا الشرقية ، في تحليلهم وتفسيرهم بحقيقة هذه الحرب واحداثها ودور كل طرف فيها .

---

(١) ادورد كار ، ماهو التأريخ ، ص٣١
(٢) جوزيف هورس ، قيمة التأريخ ، ص ٩١
(٣) ابن خلدون ، المقدمة ، ص ٢٨
(٤) ادورد كار ، ص ٢٣

اما الامر الاخر الذي تجدر الاشارة اليه فهو ان المؤرخ يستند الى الحقائق المفردة التي تتبين له من الماضي ، ويحتاج الى خياله في صياغة المادة التأريخية بصورة معينة ووفق منطق معين ، اذا ما اراد احياء الماضي وبعث الحياة فيه ، فاذا ما احيا الخيال التاريخ ، فهو بحاجة الى براعة الكاتب حتى يبرز التاريخ في الثوب اللائق به (١) .

وضمن الاطار نفسه يعلق اسد رستم قائلا « يترتب على المؤرخ عند بدء العمل في ربط الحقائق المفردة وتأليفها ان يتخيل لنفسه من مظاهر المجتمع مايفترض وجوده في الماضي ، ثم ينظم حقائقه على اساس ماتخيل وجوده بالقياس ، واذا فعل هذا فسرعان ما يرى ان الحقائق المفردة تتوفر في بعض النواحي وتنعدم في البعض الاخر ، فيحدث فراغ في بعض الاحيان لابد من تلافيه » (٢) ويصح هذا الرأي بشكل خاص اذا ما كانت الاحداث عن العصور القديمة ، فاذا ما حاولنا الاطلاع على ما كتبه المؤرخون عن كليوباترا مثلا ، وكيف قدموا شخصية هذه الملكة الحسية والمعنوية ، وكيف اغرى هذا الخيال التاريخي الادباء والشعراء بالاسراف في التخيل ايضاً .

وبناء على ماتقدم نستطيع القول بأن التأريخ وفق هذه المفاهيم يقترب الى حد ما من الفن لاننا وجدنا ان للمؤرخ دوراً كبيراً في صياغة الحقيقة التأريخية بشكلها النهائي ، كما انه يستعين بخياله الى حد معين عند تقديمه الحقيقة التأريخية . وكذلك للخيال دور رئيس في الرواية لانه يرتبط بعملية التشكيل في البناء الروائي ، ومن هنا تبرز مسألة التشابه بين المؤرخ والروائي والتي اشار اليها كولنجوود R·G·Collingwood في كتابه «فكرة التأريخ» فيقول ان كلا منهما ينصرف الى رسم صورة تتألف من عدة

---

(١) هرنشو ، علم التاريخ ، ص ٣
(٢) اسد رستم ، مصطلح التأريخ ، ص١١١

عناصر بحيث تنطوي على قصص للاحداث ، ووصف للمواقف وعرض للدوافع والبواعث ، ثم تحليل للشخصيات ، والواقع ان كلا منهما يهدف الى تشكيل صورة كاملة من حيث التماسك والتناسق حيث تبدو كل شخصية وتبدو كل موقف ، حلقة متصلة ببقية الشخصيات والمواقف في الصورة بأجمعها ، الى الحد الذي نجد عنده ان هذه الشخصية في هذا الموقف ، ما كان لها ان تتصرف ، او ما كان في مقدورها ان تتصرف في غير هذا الاسلوب واذن يجب ان تنطوي الرواية . كما ينطوي التأريخ ، على مغزى ، بحيث لاينبغي ان يقحم في احدهما تفصيل لايفرضه منطق الحدث ، والذي يقرر هذه الضرورة المنطقية في الحالتين هو الخيال (١) . ويأتي كولنجوود بمثل على ذلك عندما يشير المؤرخون الى ان القيصر كان في روما في يوم من الأيام وكان في الغال في يوم اخر ، ولكن لو اكملنا الحدث عن طريق ذكر تفاصيل خيالية كاسماء الاشخاص الذين قابلهم عبر الطريق ، والحديث الذي دار بينه وبينهم ، هذه من نوع التفاصيل التي يأتي بها الروائي التاريخي ، ولكن لو ان التفاصيل التي نضيفها لاتنطوي على شيء لاتحتمه المادة التأريخية لكانت هذه اضافه تاريخية مشروعة . فكولنجوود يؤدي هنا دور الخيال في كلا العملين وإن المؤرخ الكامل يلزم ان يكون على درجة من الخيال ، وان الصورة التي يقدمها عن موضوعه تكون تصويراً من نسج الخيال ممتداً بين نقط ثابتة حددتها المادة التأريخية .

ويذهب الى حد القول بانه « لايوجد ثمة فارق بين انتاج المؤرخ ، وبين نتاج الروائي ، بوصف الاثنين من نسج الخيال ، والنقطة التي يختلفان فيها ، هي ان الصورة التي يرسمها المؤرخ قصد بها ان تكون صادقة : وان ، الروائي ليلتزم بشيء واحد فقط — ذلك هو رسم صورة متشابكة متماسكة .

صورة ذات مغزى ، اما المؤرخ فيلتزم بالواجبين معا » (٢) . وعليه فمن

(١) كولنجوود ، فكرة التاريخ ، ص ٤٢٥
(٢) نفسه .

تأكيده على وجود عنصر الخيال الذي يشترك فيه المؤرخ والروائي في بناء صورتهما للماضي إلا ان كولنجوود يعود ويشير الى الفرق بينهما ، فيجعل للمؤرخ واجبين ، فصورته يجب ان تكون صادقة وذات مغزى ، ويجعل للروائي واجباً واحداً هو ان تكون صورته متماسكة وذات مغزى ، ولكن الروائي في اي حال من الاحوال ليس مؤرخاً ولايكتب تأريخاً ، وانما يقدم عملاً يحمل طابع التاريخية الروائية ، ذلك ان الابداع الروائي في هذا المجال يقوم بالضرورة على فكرة من التأريخ ، ولكن كلا من التأريخ والرواية ينتمي الى ميدان معين من المعرفة ، له منهجه الذي يختلف عن الاخر وصدقه الذي يسعى الى الوصول اليه .

ان موضوع الفرق بين الاثنين يعود الى آرسطو اولا عندما قدم الشعر على التأريخ في كتابه «فن الشعر» عندما قال « وواضح كذلك مما قلناه ان مهمة الشاعر الحقيقية ليست في رواية الامور كما وقعت فعلا ، بل رواية مايمكن ان يقع والاشياء ممكنة : اما بحسب الاحتمال او بحسب الضرورة ، ذلك ان المؤرخ والشاعر لايختلفان بكون احدهما يروي الاحداث شعراً والاخر يرويها نثراً وانما يتميزان من حيث كون احدهما يروي الاحداث التي وقعت فعلا ، بينما يروي الاخر الاحداث التي يمكن ان تقع » (١) .

صحيح ان « الماضي» هو الموضوع المشترك بين الروائي والمؤرخ ، إلا ان الرواية التاريخية عمل فني ، يستمد قيمته او اكثرهما من ذاته ، ومن جمالياته الخاصة وقضاياه المثارة . فاذا ماكان له اصل تأريخي ، فالامر باق على حاله لان العمل الفني التأريخي لايستمد مشروعية وجوده من مشابهته للتأريخ ،وانما على تناوله للتاريخ بشكل يبدو منسجماً مع المنطق الانساني وغير متناقضه مع مسلمات التأريخ التي ليست موضع شك . فالرواية هنا لاتقدم الحقائق التاريخية كما هي ، بل يحاول الروائي تصوير الحياة الانسانية من خلالها

(١) ارسطو ، فن الشعر ، ص ٢٦

وهو لايعنى بها لذاتها ، كما يفعل المؤرخ ، وانما تهمه روعة الصورة التي يستخرجها من تلك الحقائق ، فهناك هدف يسعى اليه الروائي وهو ان يرينا كيف نَصرفَ الاشخاص والأحداث يسيران بشكل تفرضه طبيعة الاشخاص والأحداث في فترة تاريخية معينة (١) ، ويلعب خيال الروائي دورا كبيراً في تحقيق ذلك فهو يستعين بخياله لملء الفراغات التي يتركها التاريخ ويعدها الروائي جزءاً من مظاهر الحياة انذاك . فالمؤرخ يحاول ان يدرك الماضي بوصفه شيئا قائما بذاته اي يلقي الضوء على حقيقة احداثه في حين يقوم الروائي باعادة صياغة احداث الماضي ليعيد اليها الحياة . فتولستوي (١٨٢٨ — ١٩١٠) تناول فترة غزو نابليون لروسيا القيصرية في رواية (الحرب والسلام) ومن خلال عدد من المشاهد والشخوص يتوصل تولستوي الى تجسيد الظواهر والأبطال الذين يكشفون بترابطهم مع الاحداث ذات الحجم التاريخي من الفكرة الرئيسية للرواية (٢) ، فتولستوي يرمي الى معالجة الماضي معالجة اوسع مما يفعله المؤرخ لكي تبدو الحياة للعيان في ترابط منطقي اوسع ففي هذه الحالة الروائي التاريخ يمزج الجانب التاريخي با لجانب الروائي في عمله.فالاول (اي التاريخ) له دور هيكلي تنظيمي ان صح التعبير ، والثاني (اي الروائيَ) يمثل التكامل الحياتي وتجسيده الفني ، وذلك مرتبط بشكل كبير بقدرة الروائي الابداعية . فهو يفاضل ويقارن بجمالية فنية بين الحياة اليومية وسبل المعيشة التي تظهر دقائق حياة الناس في ابسط مظاهر الحياة البشرية وبين مشاهد ذات اهمية تاريخية (٣) .

ولكي يستطيع الروائي اعادة خلق الماضي في روايته وتعبيره عن العصر الذي يتناوله يأتي بحوادث واشخاص من صنع الخيال . تعيش جنبا الى جنب مع شخصيات تاريخية حقيقية . وهو يحاول بذلك تقديم تجربة الانسان في ذلك العصر بكل مآسيه وافراحه ، ويقوم بتصوير الشخصية الانسانية بجوانبها المختلفة ، كحياتها الخاصة وعالمها الداخلي واسلوب حياتها وتصوير سلوك

١- ولتر الن ، الرواية الانكليزية ص ١٧٢

٢- ادينكوف ، ف ، غ ، فن الادب عند تولستوي ، ص٩٩

3- Butter Field, The Historical Novel, P-10.

الناس العاديين بشكل ينكشف معناه العميق خلف الجوانب العادية العارضة وارتباطها ارتباطا وثيقاً بالجو التاريخي للعصر . ويستطيع بذلك تقديم فهم تصوري لاذهان الناس في الفترة التي يتعامل معها ولافكارهم التي تكمن خلفها افعالهم وقد تمكن « ولتر سكوت » على سبيل المثال من خلق عدد كبير من الشخصيات غير التاريخية لكنها مثلت فتراتها التاريخية خير تمثيل ، وهذا مكنه على ابراز العلاقة بين الانسان والمكان ، والأنسان والمجتمع ، والانسان وماضيه اي تاريخه . ففي رواية « قلب مدلوثيان» (١) "Heart of Midlothian" » كانت «جيني دينز» بطلة هذه الرواية وهي شخصية غير تاريخية من صنع سكوت ، الا أنه استطاع بواسطتها ان يرسم ملامح عصر كامل من تاريخ انكلترا وان يعرض مشهداً تاريخياً وتشريحيا في غاية الاهمية .(٢)

والذي يجعل الرواية التاريخية رواية حية وتراثاً قيما في الاداب العالمية هو مسؤولية الروائي الحقيقية تجاه الماضي ، ولو ان المفهوم الذي لديه عن الحقيقة التاريخية قد لاينطبق تماما مع المضمون الموضوعي للتأريخ ، الا انه يحاول تقديم رؤيته العامة له ، وذلك بالتعاطف المتخيل مع اناس عاشوا في تلك الفترة وخاضوا تجربتها . فعندما يكتب جارلز ديكنز (١٨١٢ ـ ١٨٧٠) في «قصة مدينتين» (٣)رؤيته للثورة الفرنسية يربط بين الاختيارات الشخصية لابطال روايته ومعنى الازمة التاريخية من فترة معقدة مضطربة من التاريخ ولايحاول ديكنز تناول احداث حقيقية ،ولكن عندما يفعل ذلك يحاول اعطاء طابع واقعي لاحداث روائية فهو يبحث عن الكيفية التي اخذت حياة اولئك الافراد شكلها في لحظات محددة في التاريخ ، وطبيعة تلك الحقبة التاريخية

(١) «قلب مدلوثيان» رواية نشرها ولتر سكوت سنة ١٨١٨ وهي واحدة من سلسلة من رواياته التأريخية التي تربو على العشرين . وتعد واحدة من اهم رواياته وخاصة في تنوع شخصياتها التي تتوزع اجتماعياً بين الطبقات الدنيا في المجتمع الى شخصية الملكة ، «كارولاين» وهذا التنوع اوسع من نجده في اية رواية في تلك الفترة

(٢) ارنولد كتل ، مدخل الى الرواية الانجليزية ، ج١ ،ص ١٤٠

(٣) نشرت رواية «قصة مدينتين» سنة ١٨٥٩ ، والمدينتان هنا هما لندن وباريس ابان الثورة الفرنسية ، ويقدم ديكنز وصفاً حياً وممتعاً لمدينة باريس .

ب- المصادر الأجنبية

12- Baker, Ernest, **The History of the English Novel**, vol111 H.F. & G. Witherby, London, 1929.

13- Butterfield, H., **The Historical Novel**, Cambridge, 1924.

14- Cam, Helen, **Historical Novel**,Historical Association, London, 1961.

15- Flieshman, A., **The English Historical Novel**, John Hopkins Press, Baltimor, 1472.

16-Sanders, Andrew, **The Victorian Historical Novel 1840-1880**, Macmillan Press Ltd., London, 1978.

17-Sheppard, A.T., **The Art and Practice of Historical Novel**, Humphrey Toulmin, London, 1930.